الرجل الذي كان رجلا تقريباً

للكاتب الأمريكي: (رتشارد رايث)

اندفع «ديف» بهمة عبر الحقول... منطلقاً تجاه منزله. واتجه بنظره عبر الضوء الخافت المتلاشي: ما الفائدة من الحديث مع هؤلاء الزنوج في الحقل؟ وعلى أي حال فقد كانت أمه تضع العشاء على المائدة ـ ثم إن هؤلاء السود لا يفهمون شيئاً... يوماً من الأيام سيحضر مسدساً ويتدرب على إطلاق النار، عندها لن يكون بمقدورهم مخاطبته كما لو كان غراً صغيراً، وخفف من سيره ثم تطلّع إلى الثرى: تباً لهم! لست خائفاً منهم وإن كانوا أكبر سنًّا آه... أعلم ما سأفعل، سأتجه إلى متجر «جو» الليلة فأتصفح دليل «سيرز» حيث ألقي نظرة على ما يحويه من مسدسات، ربما اشترت أمي واحداً لي لدى استلامها مستحقاتي من العجوز «هوكنز». سوف أتوسل إليها كي تمنحني شيئاً من النقود. فأنا في سنٍّ تسمح لي باقتناء مسدس. أنا في السابعة عشرة وذلك يعني أنني قد أصبحت رجلاً تقريباً. ومضى يتحسَّس أطرافه الطويلة الهشة التركيب مبتسماً: من حق المرء أن يحصل على مسدس بعد مجهود يوم شاق. ولاح له متجر «جو» فيما كان مصباح يرسل ضوءاً واهياً في الواجهة الأمامية. وصعد الدرج مسرعاً ثم أغلق الباب وراءه فسمع صوت التحامه بإطاره. وانبعثت من المكان رائحة وقود فحم وسمك «الاسقمري» وكان لا يزال محتفظاً بثقته ورباطة جأشه حتى بصر بـ«جو» السمين يدخل من الباب الخلفي عندها بدأت الشجاعة تخونه.

ـ كيف حالك يا «ديف»؟ ماذا تريد؟

ـ أهلا سيد «جو»! لم أحضر لأبتاع شيئاً... هل بمقدورك إعارتي دليل «سيرز» لوهلة؟

ـ بالطبع... أتريد أن تلقي عليه نظرة هنا؟

ـ كلا يا سيدي... سآخذه معي إلى المنزل على أن أعيده غداً لدى عودتي من الحقول.

ـ أتعتزم شراء شيء؟

ـ نعم سيدي.

ـ إذاً فوالدتك قد سمحت بأن يكون لك مالك الخاص؟

ـ بالطبع... سيد جو لقد أصبحت رجلاً كغيري، وضحك «جو» وهو يزيل بقع الزيت عن وجهه الأبيض بمنديل أحمر.

ـ وما الذي تعتزم شراءه؟

ونظر «ديف» إلى الأرض وحك رأسه وقدمه وابتسم قبل أن يرفع رأسه بخجل ليقول:

ـ سأخبرك يا سيد «جو» إن وعدت بألا تقول لأحد.

ـ أعدك!

ـ حسن... أريد أن أبتاع مسدساً.

ـ مسدس؟! ولماذا تريد مسدساً؟

ـ كي أحتفظ به!

ـ لكنك لا تعدو كونك ولداً، لست بحاجة إلى مسدس.

ـ أوه... دعني أحصل على الدليل يا سيد «جو»... سأعيده إليك!

واختفى «جو» عبر الباب الخلفي فيما غمرت البهجة فؤاد «ديف» ونظر إلى أكياس الدقيق والسكر وقد اكتظ بها المتجر... ثم تناهى إليه صوت مجيء «جو» فلوى عنقه مستطلعاً ما إذا كان قد أحضر الدليل معه... أجل إنه معه... معه!

obeikandl.com

ـ إليك... لكن تأكد من إعادته فليس لدي سواه.

ـ طبعاً سيد «جو»!

ـ لكن... إن كنت تنوي شراء مسدس فلم لا تشتريه مني؟

لدي مسدس للبيع.

ـ وهل يُطلق؟

ـ بالطبع يطلق؟!

ـ ما نوعه؟

ـ إنه قديم نوعاً ودولابه إلى الشمال. إنه مسدس كبير.

ـ وهل بداخله رصاص؟

ـ نعم إنه محشو.

ـ وهل بإمكاني أن أراه؟

ـ أين النقود؟

ـ كم تريد ثمناً له؟

ـ سأسمح لك بالحصول عليه مقابل دولارين.

ـ دولاران فقط؟!! بإمكاني شراؤه عندما أستلم راتبي.

ـ سأحتفظ به حتى تأتي.

ـ حسن سيدي. سأكون هنا لشرائه.

ومر «ديف» عبر الباب خارجاً فسمع اصطفاقة ثانية خلفه وشرع يناجي نفسه: سأحصل من أمي على بعض المال وأجيء لشرائه. دولاران فقط؟!! ووضع الدليل تحت ذراعه ثم أسرع عائداً إلى منزله.

obeikandl.com

ـ أين كنت يا ولد؟ قالت أمه حاملة صحن بازلاء ساخن.

ـ كنت أحادث بعض الصبية في الطريق.

ـ تدرك تماماً أنك يجب أن تحضر في موعد العشاء.

وجلس واضعاً الدليل على حافة الطاولة.

ـ انهض واغتسل من البئر... لست مستعدة لإطعام خنازير في منزلي.
وجذبته من كتفه فدفعته بشدة... وتعثر في أرضية الغرفة ثم عاد لأخذ الكتاب.

ـ ما هذا؟ قالت أمه.

ـ أواه... ليس إلا دليل بضاعة.

ـ ومن أين جئت به؟

ـ من «جو» صاحب المتجر.

ـ حسن! بإمكاننا الاستفادة منه!

ـ كلا يا أمي... إليّ به.

وتشبثت الأم بالكتاب فيما حملقت في ابنها: ـ

ـ كف عن ذلك! ما بك؟ هل فقدت عقلك؟!

ـ أرجوك يا أماه... إنه خاص بالسيد «جو» وقد أمرني بأن أعيده غداً!
وأعادت أمه الكتاب الثقيل إليه فاحتضنه بلهفة وعدا مسرعاً ـ موشكاً أن يتعثر في درجات السلم. وعندما غسل وجهه ويديه عاد إلى المطبخ باحثاً عن فوطة يجفف بها يديه ثم قفز إلى أحد المقاعد فصوّت الكرسي متأرجحاً، فيما جثم الكتاب على قدميه، وحالما مسح عينيه التقط الكتاب ثانية فوضعه تحت ذراعه وظلت أمه ترمقه واقفة قبل أن تقول:

ـ إن استمرت تصرفاتك الحمقاء حيال هذا الكتاب على هذا النحو فسأحرقه!

ـ كلا يا أمي! أرجوك!

obeikandl.com

ـ فاجلس إذا ولا تتحرك!

وجلس ثانية فقرب مصباح الزيت منه... وشرع يقلب صفحات الكتاب دون أن يبدي اهتماماً بالطعام على المائدة، وجاء أبوه. فأخوه الأصغر.

ـ ما هذا الشيء يا «ديف»؟ سأله أبوه.

ـ مجرد كتاب، قال دون أن يرفع رأسه.

ـ نعم... هاهي أخيراً! قال «ديف» لنفسه ـ ولمعت عيناه وهو يحدق في مسدسات زرقاء داكنة... ورفع نظره بعد أن دهمه إحساس بالذنب. كان أبوه يرقبه. وأنزل الكتاب فوضعه على ركبتيه. وبعد أن شكر الله على آلائه ونعمائه شرع يزدرد طعامه دون مضغ، على أن كوباً من اللبن سهل انزلاقه. ولم يشأ أن يذكر شيئاً عن المال في حضرة أبيه ـ سوف يسهل الأمر عندما ينفرد بأمه فيخبرها ورمق والده وجلاً من طرف خفي.

ـ لماذا لا تكف عن اللهو بكتابك وتتناول عشاءك يا ولد؟

ـ نعم سيدي.

ـ كيف أنت والعجوز «هوكنز»؟

ـ سيدي؟!

ـ ألا تسمع؟ لِمَ لا تصغي؟ قلت كيف أنت والعجوز «هوكنز»؟

ـ على أحسن حال يا أبي أنا أحرث أرضاً أكثر من أي شخص هناك.

ـ يجب أن تركز في عملك.

ـ نعم سيدي.

ـ وملأ صحنه بدبس السكر فمرر عليه رغيف ذرة وشرع يأكل ببطء. عندما غادر أبوه وأخوه المطبخ كان لا يزال ينظر إلى المسدس في الدليل... مستجمعاً أطراف أصابعه كي يفاتح أمه في الأمر. رباه... لو امتلكت هذا المسدس فقط.

إنه يكاد يحس بانسيابيته بين أصابعه... لو كان لي مثل هذا المسدس لبالغت في تلميعه والعناية به فلا يصدأ أبد الدهر ولا حتفظت به ملقّماً محشواً! أماه... وكان صوته متردداً.

ـ نعم.

ـ هل أعطاك العجوز هوكنز مرتبي؟؟

ـ نعم لكن لا يدر بخلدك أنني يمكن أن أجعلك تضيع أياً منه... إنني أحتفظ به لأشتري لكم ملابس للمدرسة هذا الشتاء. وهب فاتجه إليها والدليل مفتوح على راحتيه... كانت تدعك بعض الأطباق... حانية رأسها... ورفع الكتاب في خجل وعندما نطق كان صوته خافتاً ضعيفاً.

ـ أماه... الله وحده يعلم كم أود امتلاك واحد من هؤلاء.

ـ واحد مم؟ سألت دون أن ترفع عينيها.

ـ واحد من هؤلاء. كرر... دون أن يجرؤ على مجرد الإشارة والتفتت فرمقت الكتاب بنظرة سريعة قبل أن يرتد طرفها إليه... وقالت وقد اتسعت عيناها:

ـ هل فقدت عقلك أيها الزنجي؟!

ـ أواه... يا أمي.

ـ اغرب عن وجهي... وإياك أن تحدثني ثانية أيها الأحمق.

ـ ولكن بإمكاني ابتياع واحد بدولارين فقط.

ـ لن تفعل!... حسبما أعرف.

ـ لكنك وعدتني بشراء مسدس لي!

ـ لا تلق بالاً إلى ما وعدتك به... لست سوى ولد صغير.

ـ إن اشتريت لي واحداً فلن أطلب منك شيئاً ما حييت.

obeikandl.com

ـ قلت لك اغرب عن وجهي، لن تنفق شيئاً من هذا المال، لهذا أمرت السيد «هوكنز» بأن يدفع بمرتبك إليَّ لأني أعلم بأنه لا إدراك لديك.

ـ لكننا بحاجة إلى مسدس يا أمي... إن أبي لا يملك واحداً ولا يمكن لأحد أن يتنبأ بما يمكن أن يحدث.

ـ لا تحاول استغفالي أيها الصبي: لو كان لدنيا مسدس فلن يكون معك. ووضع الكتاب فأحاط خصر أمه بذراعه.

ـ أماه... لقد عملت طوال الصيف... ولم أطلب منك شيئا... أليس كذلك؟

ـ وهذا هو ما يتحتم عليك عمله.

ـ لكني بحاجة إلى مسدس يا أمي. بإمكانك إعطائي دولارين من مرتبي... أرجوك يا أمي.. وسأعطيه لأبي... أرجوك يا أماه... أرجوك...

وعندما تكلمت... جاء صوتها رقيقاً خافتاً.

ـ لم تريد مسدساً يا «ديف»؟ لست بحاجة إليه... سوف تقع من جرائه في كثير من المشاكل... ولو علم أبوك بأنني أعطيتك مالاً كي تشتري به مسدساً فقد يصاب بنوبة.

ـ سأخفيه! إن ثمنه لا يتجاوز الدولارين.

ـ يا الهي!... ماذا حدث لك أيها الصبي!

ـ لا شيء يا أماه... أوشك أن أصبح رجلاً وأريد مسدساً.

ـ ومن سيبيعك إياه؟

ـ العجوز «جو».

ـ لا أظنه سيكلّفك دولارين فقط!

ـ بلى... دولاران لا أكثر... أرجوك يا أمي!

obeikandl.com

كانت ترص الأطباق حين تحركت يداها ببطء فيما جثم «ديف» في صمت مطبق... ثم التفتت إليه أخيراً.

ـ سأدعك تحصل على المسدس إن وعدتني بشيء.

ـ وما ذاك؟

ـ أن تحضره إليّ مباشرة ـ هل تسمع؟ سيكون لأبيك.

ـ نعم يا أماه... دعيني أذهب!

وانحنت فاستدارت قليلاً... ورفعت ذيل فستانها، فطرف جوربها قبل أن تخرج ربطة مال هزيلة.

ـ إليك! يعلم الله أنك لست بحاجة إلى مسدس وأن من يحتاجه هو أبوك ـ أحضره لي؟ هل تسمعني؟ سأدفع لك ولتكن على يقين من أنك إن لم تعطني إياه فسأجعل والدك يضربك علقة يبقى ذكرها عالقاً ببالك ما حييت!.

ـ نعم يا أمي.

وأخذ المال فجرى مسرعاً واجتاز السلم والساحة.

ـ ديف: يووووه... دييييف!

كان يسمعها لكنه لم يرد أن يتوقف. يا إلهي! تمتمت. كانت أول حركة قام بها صبيحة الغد هي استخراج المسدس من تحت وسادته! وعلى ضوء الفجر الرمادي... أمسك به. فأحس شيئاً من القوة والسلطة... وبإمكاني أن أقتل رجلاً بمسدس كهذا ـ قال لنفسه ـ أن أقتل أيًّا كان أبيض أو أسود، وإذا ما كان المرء ممسكاً بمسدس فلن يقترب منه أحد وسيلاقي كل احترام. كان مسدساً كبيراً بماسورة طويلة ومقبض ثقيل وشَرَعَ يزنه بيديه... لم يأت به إلى المنزل مباشرة كما أمرته أمه... بل مضى به إلى الحقول وجعل يشهره هنا وهناك تجاه عدو

وهمي ولكنه لم يطلق رصاصة واحدة فقد كان يخشى أن يسمع أبوه ذلك. كما أنه لم يكن متأكداً من معرفته للرماية. ولتفادي تسليم المسدس فإنه لم يعد إلى بيته إلا بعد أن تيقن أن جميع من فيه قد خلدوا إلى النوم.

وعندما تسللت أمه إلى غرفة نومه على أطراف أصابعها في وقت متأخر من تلك الليلة وأمرته بأن يسلمه إليها تمارض بادي ذي بدء ثم أخبرها بأنه قد دفنه خارجاً... وبأنه سيحضره صبيحة الغد... أما الآن فقد كان مستلقياً على سريره يقلب المسدس ذات اليمين وذات الشمال قبل أن يستخرج الرصاص ليعاينه ويعيده تارة أخرى. وانزلق من سريره بخفة فأخرج من صندوقه قطعة صوف كبيرة لفه فيها وربطه إلى فخده محشوًّا ولم يتناول إفطاراً... ورغم أن الشمس لم تكن قد أشرقت بعد فقد اتجه إلى حقل العجوز «هوكنز» حيث يعمل... ووصل إلى هناك مع انبلاج وهج النهار حيث صافح نظره مرأى البغال والمحاريث.

ـ أهذا أنت يا ديف»؟

والتفت فرأى «هوكنز» يرمقه بريبة وشك.

ـ ماذا تفعل هنا باكراً؟

لم أكن أعلم بأن الوقت كان مبكراً سيد «هوكنز» كنت أصلح لجام البغلة العجوز «جيني» لآخذها إلى الحقل.

ـ حسن. بما أنك قد بكرت بالمجيء فهلا حرثت قطعة الأرض بجانب الغابة؟

ـ سأفعل.

ـ فلتذهب إذاً!

وربط المحراث بـ»جيني« ثم مضى تجاه الحقول... أجل... ذاك ما كان يروم... في الغابة لن يتمكن أحد من سماع طلقة المسدس... وظل يسير بجانب المحراث وصوت احتكاكه بالأرض الصلبة يخدش مسامعه... والمسدس مربوط بإحكام إلى

فخذه... وعندما وصل حرث رقعتين كاملتين قبل أن يقرر إخراج المسدس وأخيراً... توقف ورمى بنظره إلى الاتجاهات الأربعة قبل أن يحلّ مسدسه ويمسك به بين راحتيه!

والتفت إلى البغلة فابتسم: ـ

ـ أتعرفين ما هذا يا «جيني» لا أظن ذلك!! لا تعدين كونك بغلة! هذا مسدس. على أي حال ويمكن أن يطلق ناراً وأيم الله! وأمسك المسدس مبعداً إياه عنها مسافة ذراع.

سترين، كيف سأطلق النار منه؟ عندما أسحب الزناد فإني لن أحتمل منك أي تصرف أحمق! أتسمعين!

كانت جيني خافضة الرأس. رافعة الأذنين... وسار «ديف» قرابة العشرين قدماً مبعداً المسدس عنه قيد ذراع ثم أدار رأسه. لست خائفاً ـ قال لنفسه ـ وأحس بالمسدس رخواً بين يديه وحركه بعنف ثم أغلق عينيه وأحكم أصبعه على الزناد بوووووم! كاد الصوت يصمُّ أذنيه فيما أحس وكأن يده اليمنى قد انفصلت عن جسده، ورأى «جيني» تندفع عبر الحقل. ثم وجد نفسه جاثياً على ركبتيه، فاركاً أصابعه بشدة... وتخدرت أصابعه فوضعها في فمه لتدفئتها... وكبح جماح الألم فيما كان المسدس جاثماً تحت قدميه. لم يكن يدري ما الذي حدث؟! ووقف يحدق في المسدس كما لو كان كائناً حياً... ثم صرَّ على أسنانه قبل أن يركله.

ـ كدت تكسر يدي ـ خاطبه ـ واستدار باحثاً عن «جيني».

ـ كانت هناك بعيداً في الحقول... تهز رأسها وترفس بعنف.

ـ توقفي أيتها البغلة! وعندما حاذاها كانت ترتجف وتحدق فيه بعينيها الواسعتين البيضاويتين. فيما سقط المحراث بعيداً ثم... توقف «ديف» فجأة غير مصدق لما يراه كانت جيني تنزف... وكان جنبها الأيسر أحمر مرطباً بالدماء ودنا منها أكثر... رحماك ربي! هل أصبت هذه البغلة... وحاول أن يلمس عرفها

فاهتزت وحمحمت وأدارت رأسها بعنف ـ تجلدي الآن! عندها رأى الثقب في جنبها بين الأضلاع تماماً كان مستديراً مبللاً. قانياً فيما انبثق نبع من النجيع بمحاذاة ساقها الأمامية ـ يا إلهي لم أكن أقصد... وأصابه الذعر... كان يعرف أن عليه إيقاف الدماء وإلا نزفت «جيني» حتى الموت... لم ير دماء كثيرة كهذه في حياته... وطارد البغلة مسافة نصف ميل في محاولة للإمساك بها... ثم توقفت أخيراً وهي تتنفس بشدة وذيلها شبه مقوس وأمسك بعرفها فأعادها إلى حيث كان المحراث والمسدس ثم طأطأ فتناول قبضة من الطين حاول أن يسد بها الثقب فانتفضت وهربت منه.

ـ توقفي! توقفي الآن!

وحاول سد الثقب إلا أن الدماء كانت تندفع بغزارة... وأحس بأصابعه حارة لزجة... ففرك راحتيه بشيء من الوحل في محاولة لتجفيفها قبل أن يهبَّ ثالثة كي يسدَّ فتحة الرصاصة إلا أن «جيني» جفلت ثانية رافسة الهواء بساقيها. ووقف يائساً! كان عليه أن يفعل شيئاً وعدا إليها فراغت عنه وهاله مرأى الدم المنبعث من الجرح وقد تجمع تحت قدميها في بركة حمراء «جيني»... «جيني» ناداها واهناً. وارتجفت شفتاه! إنها تنزف حتى الموت!... ومدَّ بصره تجاه بيته... كان يود أن يعود ليجلب مدداً لكنه رأى المسدس ملقى في الوحل الرطب الأسود وفكر لوهلة... لو أنه عمل شيئاً فقد لا تواجه «جيني» الموت نزفاً! وعندما اتجه إليها هذه المرة لم تتحرك... كانت جاثمة... ونظرات ناعسة حالمة تشع من عينيها وحين مسها تحركت بعنف وانكفأت على الأرض فيما كانت ركبتاها الأماميتان غارقتين في بحيرة من الدماء. وهمس. «جيني» «جيني»... ظل عنقها ممدوداً لفترة طويلة ثم... بدأ رأسها في الانحدار شيئاً فشيئاً وعلا صدرها بعنف ثم... ماتت! وأحس «ديف» بأن معدته فارغة جداً والتقط المسدس فأمسك به بحذر بين سبابته وإبهامه ودفنه تحت جذع شجرة.. والتقط عصا وحاول أن يخفي بها آثار الدماء لكن.. أكان ذلك يجدي نفعاً؟! هاهي «جيني» ترقد وقد

فغرت فاها فيما لمعت عيناها الزجاجيتين ولم يكن بمقدوره أن يخبر «جيم هوكنز» بأنه قد قتل بغلته، إلا أنه كان يتحتم عليه أن يجد مبرراً! أجل ـ قال لنفسه ـ وسأخبره أنها كانت بعافية حتى سقطت على حد المحراث... على أن حدوث ذلك لبغل هو من الأمور النادرة جداً... وسار عبر الحقل وئيداً مطأطئ الرأس.

توارات الشمس خلف الجبال فيما كان اثنان من رجال «هوكنز» يحفرون قبراً كي يدفنوا «جيني»... أحاط جمع من الناس بـ«ديف» وكانوا بلا استثناء ـ يديمون النظر إلى البغلة النافقة.

ـ ليس بمقدوري أن أفهم كيف ماتت!

قال «جيم هوكنز» للمرة العاشرة.

ومن بين الجمع... شق أبو «ديف» وأمه وأخوه الأصغر طريقهم إلى وسط الحلقة.

ـ أين «ديف»؟ نادت أمه.

ـ هاهو! رد «جيم هوكنز».

ـ وأمسكت أمه به.

ـ ماذا حدث يا «ديف»؟ وماذا فعلت؟

ـ لا شيء!

ـ هيا... تكلم يا ولد؟! قال أبوه.

وأخذ «ديف» نفساً عميقاً. قاصاً الرواية التي كان على يقين من أن أحداً لن يصدقها ـ لقد جلبت «العجوز» «جيني» إلى هنا كي أحرث الأرض. وبعد أن قلبت رقعتين من الأرض كما ترون... ثم توقف فأشار إلى الأرض المحروثة. عندها حدث شيء مال «جيني»... لقد أخذت تتصرف بشكل غريب فتشخر تارةً... وتركل الهواء بقدميها تارة أخرى ولقد حاولت كبح جماحها فلم أفلح وبينما كان حد المحراث إلى الأعلى اتجهت نحوه وقفزت فوقه ثم بدأت تنزف. وقبل أن أتمكن من عمل شيء... كانت قد ماتت!

obeikandi.com

ـ هل سمعتم شيئاً كهذا في حياتكم؟ «سأل جيم هوكنز» كان في الجمع بيض وسود وتمتموا لبعضهم فيما دنت والدة «ديف» منه وتفرست في وجهه!

ـ قل الحقيقة يا «ديف»؟... قالت

ـ تبدو لي وكأنها ناتجة عن عيار ناري قال أحدهم.

ـ ماذا فعلت بالمسدس يا «ديف» سألته أمه.

ـ وماج الجمع دانياً أكثر فأكثر... متأملاً إياه ووضع يديه داخل جيوبه ووببطء حرك رأسه من الشمال إلى اليمين وتراجع وقد اتسعت حدقتاه ولمعتا ألماً.

ـ أكان بحوزته مسدس؟ سأل «جيم هوكنز».

ـ لقد قلت لكم إن ذلك كان نتيجة عيار ناري. قال رجل ضارباً ساقه بيده. وأمسك أبوه بكتفيه فهزهما حتى سمعت لأسنانه طقطقة!

ـ خبرني بما حدث أيها الشقي! تكلم.

ونظر «ديف» إلى ساقي «جيني» المتخشبة قبل أن يشرع في البكاء.

ـ ماذا عملت بالمسدس؟ سألته أمه.

ـ ماذا كان يعمل بالمسدس؟ سألها أبوه.

ـ هيا ولتقل الحقيقة! قال «هوكنز» لن يؤذيك أحد ودنت منه أمه.

ـ هل أطلقت النار على البغلة يا «ديف»؟

وبكى «ديف» والوجوه السوداء والبيضاء تتراقص أمامه.

ـ لم أذهب بها لأقتلها... أقسم لكم بالله... كنت فقط أحاول معرفة ما إذا كان المسدس القديم صالحاً للاستعمال.

ـ ومن أين لك به؟ سأله أبوه.

obeikandl.com

ـ تحصلت عليه من متجر «جو».

ـ ومن أين أتيت بالمال؟

ـ أعطتني إياه أمي.

ـ لقد ظل يزعجني يا «بوب» فاضطررت إلى ذلك اضطراراً على أنه وعدني بإحضاره... لقد ابتعناه لك.

ـ لكن كيف أطلقت على تلك البغلة؟

سأل «هوكنز»

ـ لم أصوب تجاهها سيد «هوكنز» لقد تحرك المسدس حينما ضغطت على الزناد وقبل أن أتمكن من معرفة ما حدث كانت «جيني» تنزف هناك.

ـ وضحك أحدهم فيما سار «جيم هوكنز» تجاه «ديف» وحدق في وجهه قبل أن يقول.

ـ يبدو أنك قد ابتعت بغلة ميتةً يا «ديف»!

ـ أقسم بالله أنني لم أذهب لأقتلها يا سيد «هوكنز»!

ـ ولكنك قتلتها!

وقتها ضحك الجمهور المحتشد برمته فيما كان كل منهم يقف على أطراف أصابعه محركين رؤوسهم هنا وهناك تحقيقاً لرؤية أفضل.

ـ حسن يا صبي! يبدو أنك قد ابتعت بغلة ميتة... ها... ها... ها.

أليس ذلك عاراً؟ هو... هو... هو «ضحك».

ووقف «ديف» منكساً رأسه... حافراً بقدميه في الوحل.

ـ لا داعي للقلق يا «بوب» قال «جيم هوكنز» مخاطباً والد «ديف».

ـ دع الصبي يعمل عندي دافعاً دولارين شهرياً.

كم تريد ثمناً لبغلتك يا «هوكنز».

وضيق جيم ما بين عينيه.

ـ خمسين دولاراً.

ـ ماذا فعلت بالمسدس؟ سأله أبوه بحدة!

ولم ينبس «ديف» ببنت شفة.

ـ أتريد أن أضربك بغصن حتى تنطق؟

ـ كلا يا سيدي.

ـ ماذا فعلت به إذاً؟

ـ ألقيت به بعيداً.

ـ أين؟

ـ في الجدول!

ـ عد الآن إلى البيت وليكن أول ما تفعله صبيحة اليوم التالي هو الذهاب إلى الجدول وإحضار المسدس.

ـ نعم سيدي.

ـ كم دفعت ثمناً له.

ـ دولارين.

ـ أعد المسدس إلى صاحبه وخذ الدولارين فادفع بهما إلى السيد «هوكنز» أتسمع؟ وتذكر بأنني سوف أحاسبك على ذلك حساباً عسيراً. والآن إلى المنزل واستدار فسار الهوينى وسمع الناس يضحكون فأحس بالدموع تسبح في عينيه فيما مار غضب جارف في صدره وازدرد ريقه ثم مشى يتعثر خطوه بالخجل والخزي.

obeikandl.com

ولم ينم «ديف» تلك الليلة... سره إخلاء مسؤوليته من قتل البغلة إلا أنه كان متألماً وكلما لاح لخياله منظر الجمع الضاحك أحس بالغضب الحارق ذاته... يغلي في أعماقه وتقلب في سريره فيما أحس بالوسادة قاسية خشنة مؤلمة.

ـ يقول أبي بأنه سيضربني ـ وتذكر ما سلف من عقاب فماج ظهره: لن أسمح له بأن يضربني بتلك الطريقة مرة أخرى.

تباً لهم جميعاً. لم يحدث أن وهبه أحد منهم شيئاً. لقد ظل يعمل ويعمل. فيعاملونه كما لو كان بغلاً ـ ثم يضربونني وصر على أسنانه غيظاً... لقد خذلني الجميع حتى أمي أفشت سري؟ حسناً بمقدوره أن يدفع لـ «هوكنز» العجوز دولارين لكن هذا يعني بيع المسدس وهو يرغب في الاحتفاظ به. خمسون دولاراً لبغلة ميتة؟!!... واستدار في فراشه محاولاً أن يعرف كيف أطلق النار... ثم أحس برغبة ملحة في أن يطلق النار ثانية وإن كان بمقدور الرجال الآخرين إطلاق النار فإنني لست أقل منهم... وأصاخ السمع. قد يكون الجميع نياماً الآن... كان البيت ساكناً والصمت مطبقاً... لا يتخلله سوى تردد أنفاس أخيه الهادئة... نعم... الآن! سيذهب بالمسدس كي يرى إن كان باستطاعته إطلاق النار منه ثانية. وتسلل من فراشه فارتدى ملابسه وخرج.

كان القمر بدراً... وعدا طوال الطريق إلى الغابة تقريباً وشرع يبحث في المكان الذي خبأ فيه المسدس. نعم! ها هو. كان يحفر كما لو كان كلباً جائعاً ينبش الأرض لاستخراج قطعة عظم وكوّر أوداجه السود قبل أن ينفخ التراب عن الزناد والماسورة. وثنى المسدس فوجد به أربع رصاصات. وتلفت حوله... كان الحقل يسبح بسكون في ضوء القمر... وأحكم قبضته حول الزناد لكنه أغمض عينيه وأدار رأسه قبل أن يضغط بأصبعه. لا يمكن أن أطلق النار بعينين مقفلتين ورأس مدار! وفتح عينيه بصعوبة ثم سحب الزناد.

بالووووووم! ـ كان متصلباً كاتماً أنفاسه، وكان المسدس لا يزال في يده تباً لقد فعلها. وأطلق ثانية بلووووووم! بلووووووم. بلووووووم! ها قد أفرغت المسدس. إن

كان في استطاعة أحد أن يطلق أعيرةً فإنه يستطيع. ووضع المسدس في جيبه ثم سار عبر الحقول. وعندما وصل أعلى التل وقف شامخاً منتصباً بفخر ولجين البدر يغمره بملاءته الفضية وطفق يرمق بيت «جيم هوكنز» الأبيض الكبير متحسساً المسدس في جيبه: رباه لو تبقت لدى رصاصة واحدة لأطلقتها تجاه هذا المنزل... كم بودي لو أخفت «جيم هوكنز» قليلاً بما يكفي لأن يدرك أن «ديف سوندرز» قد أصبح رجلاً. وعن يساره كان الطريق يميل تجاه سكة قطار «ايلينوي» المركزية وحرك رأسه مصغياً. من البعيد تناهى إلى سمعه صوت خافت: هووووووف، هووووووف! وهب واقفاً.

ـ دولاران كل شهر؟ لنر هذا يعني أن ذلك سيستغرق عامين. سحقاً. وشرع ينحدر مع الطريق تجاه سكة القطار.

ـ أجل هاهو قادم ووقف متخشباً بمحاذاة السكة، إنه يمر حول المنعطف... هلم أيها البطيء... ووضع يده على المسدس ومار شيء داخل بطنه قبل أن يزمجر القطار مروراً به وعرباته الرمادية والسوداء تقرقع بشدة وأحكم قبضته على المسدس ثم نزع يده من جيبه.

ـ أراهن أن «بيل» لا يستطيع القيام بذلك ـ ومرت العربات بجانبه... حديد يقرع حديداً سأستقلك الليلة... ساعدني يا إلهي. كان جسمه يشع حرارة وتردد لوهلة قبل أن يقفز إلى إحدى العربات فيستوي فيها راقداً. وتحسس جيبه... كان المسدس لا يزال هناك... ومن بعيد كانت القضبان تلمع تحت ضوء القمر ممتدة إلى أغوار المجهول... إلى مكان ما هناك حيث سيغدو بمقدوره أن يصبح رجلاً.

obeikandl.com